حافظ إبراهيم

المديح فى شعره

بقلم حسنين حسن مخلوف

المدرس بمدرسة الخديو إسماعيل الثانوية

فى أوائل هذا القرن ظهر فى عالم الأدب شاعر كان ملء الأسماع ، أسماع الخاصة والعامة فى مصر ، هو المرحوم حافظ إبراهيم ، فى وقت كانت مصر قد أفاقت من صدمة الثورة العرابية ونتائجها ، وتطلعت إلى العزة القومية واستعادة المجد المسلوب . واحتاجت وطنيتها إلى شاعر يضرب على أوتار القلوب فيحركها ، ينزل من سماء الشعراء إلى أرض الشعب ، فقد كان شعر البارودى شخصياً ، لا يفهمه ويتعلق به إلا الخاصة من الأدباء ، وشعر شوقى تياهاً فى أودية الخيال متعالياً على أذهان العامة ، دائرا فى محيط خاص اقتضته صلته بالأمير واختصاصه به ، فأرادت الطبيعة أن تنضج حافظاً ليكون شاعر الشعب المكلوم . وأن تحرمه حنو الآباء والأمهات ليقوى إحساسه بالألم وليكون سريع الإجابة حين تلم ببلاده مدلهمات الخطوب ، ثم أرادت أن تحصن بؤسه من نعومة العيش إذ أن مصر فى حاجة إلى نغمات قيثارته الحزينة تارة . الحماسية تارة أخرى . ويشاء القدر أن يحرمه وظيفة الحكومة مع شدة تطلعه إليها ، ومع أن زملاءه الضباط الذين عصوا فى السودان ألحقوا بوظائف الحكومة فكان لله مشيئة أن يظل حافظ مغذياً للروح المصرية ، معرباً عن الأحداث القومية ، حافزا الشعب إلى النهوض ، وبخاصة من سنة ١٩٠١ إلى سنة ١٩١١ حين لحق بدار الكتب المصرية

موضوعى المديح فى شعر حافظ ، ولكنى أريد قبل أن أخوض فيه أن أقيد النتائج التى استنبطتها من قراءتى شعر حافظ أياماً طوالا

أولا : يمتاز شعره بكثرة الاستشهاد بالحوادث التاريخية والقضايا الفلسفية ، مما يدل أن حافظاً كان واسع الاطلاع فى التاريخ والأدب ، وتغلب عليه هذه

النزعة فى أكثر شعره ، وحوادث التاريخ بارزة فى نواح كثيرة من قصائده الكبرى ؛ وكأنه كان يعتبر الحوادث التاريخية والأحداث السياسية عنصرا مكملا لكل قصيدة ، فيسرف فى ذلك إسرافاً شديدا

ثانياً : يرى القارىء لشعره أن الروح الحزينة سارية فى نواحيه المختلفة من مدح ورثاء ووصف ووطنيات ، وذلك من آثار يتمه وفقره فى أول حياته ، ثم عكوفه على قراءة لزوميات أبى العلاء المعرى وموافقة فلسفته المتشائمة لظروف حياة حافظ التعسة ، وكان من أثر ذلك تفجعه على الموتى من أصدقائه كأنه سيلحق بهم سريعاً ، وفى ذلك يقول :

شاهدت مصرع أترابى فبشرنى بضجعة عندها روحى وريحانى
إذا تصفحتَ ديوانى لتقرأنى وجدت شعر المراثى نصف ديوانى

وقد امتزج تبرمه بالدنيا بالسياسة المصرية ومواقفها المشهورة فأصبحا معنى واحدا فى نفس حافظ .

ثالثاً : لهذا الشاعر ميزة ليست فى شعر غيره ، ذلك أنه لا ينظم قصيدة لغرض من الأغراض إلا وفاه شرحاً وإيضاحاً وبياناً . كأن القصيدة موضوع درس على المدرس أن يشرحه فى حصة . أو مقالة صحفية تلم بأطراف الموضوع إلماماً شديداً ؛ فهو شاعر مصور لكل ما يدور فى خلد السامعين من معان ، فاذا حلق فى سماء الخيال وقف عند التشبيهات المفردة ، وإذا هم أن يغوص فى بحور الشعر للبحث عن لآلئه أدرك أنفاسه البهر فتعلق ببعض اللآلىء التى تعجب العامة ويمر بها الخاصة سريعاً ثم يخرج اللؤلؤ من أصدافه فى ثوب براق وحلية خلابة ، ذلك لأنه شاعر صناع يجيد السبك ويحسن الضرب بالصنج وهو شاعر الجماهير يستهويها بما تشتاق إلى سماعه من ذكر آلامها وآمالها .

رابعاً : لكل شاعر أو كاتب طابع خاص يسرى فى النثر والشعر ، وأسلوب وطريقة للتفكير يعرفها من عانى قراءة مستمرة لأصناف خاصة من الكتاب أو الشعراء ، فيستطيع القارى أن يخبر صادقاً أن هذه القطعة لفلان من غير أن يعرف اسمه قبل ذلك بذيل المقالة أو القصيدة ، وذلك ناتج من كثرة القراءة

والاشتغال بالأدب . حدثنى صديق أنه كان يقرأ مقالات المنفلوطى السياسية فيعرف شخصه من أسلوبه ، وأنه قد يقرأ مقالات الرافعى أو شعر الجارم فيمر بذهنه قبل كل شىء طابعهما الذى لن ينزلا عن مستواه ؛ أما حافظ إبراهيم فقد شذ عن هذه القاعدة ، فقد تقرأ له شعراً عالى المعنى جزل الأسلوب ، ثم تقرأ له شعراً آخر فتستبيح لنفسك أن تنسبه لأى شاعر خط قصيدة فى صحيفة سيارة ، فبينما شعر حافظ يرتفع إلى سماء الأدب ، إذا به يتهاوى فى مزالقه ، وخاصة فى المدح والرثاء حينما يطلب منه ذلك فيخجل أن يرد صديقاً ؛ وبهذا فقد شعره وحدة التناسق واشتراك الأساليب فى كثير من قصائده . سأله محرر الهلال عن ذلك فقال : « الجمهور يلومنا على أن لنا كثيرا من الشعر التجارى ، ولكن الجمهور نفسه هو الذى يطلب منا ذلك ، ولو تركونا لعفو أنفسنا لأحسنا ، ولكنهم يلحون علينا فى التهانى والمراثى والمدائح ؛ ثم ينتقدوننا على أننا نطيعهم ، وكان يجب أن يراعوا هذه الظروف ، وسأطبع ديوانى بعد أن أطهره من الشعر التجارى » .

خامساً : كان حافظ فى مدحه كأنه مثال ماهر كلف بصنع تمثال بحجم الممدوح ؛ فإن كان عظيما ذا مركز اجتماعى خطير كالخديو عباس أو الشيخ محمد عبده ، كد قريحته وأحسن الرصف والوصف وأبرز مواضع العظمة فى ممدوحه ، وبخاصة إن كان من السياسيين الذين يحملون أوزار الأمة على عواتقهم ؛ إذ كان حافظ كثير السباحة فى خضم السياسة ، معنياً بشئون الأمة ؛ وإن كان عيناً من أعيان الريف يستطيب حافظ ألوان الطعام على مائدته ، كافأه على كرمه بمدحه بالكرم وقرى الضيفان ، وقد يغالى فى ذلك مغالاة تعجب صاحب الخوان ؛ وإن كان صديقاً مؤنساً تراخت أعصاب حافظ فى مدحه وفقد شعره قوته وتحول الشعر من المدح إلى رقة إخوان الصفاء ووصف مؤانستهم وكنى .

° ° °

نشأ حافظ إبراهيم مشغوفاً بالأدب متطلعاً إلى الشهرة ، وكان أقصى منى الأديب فى تلك الآونة أن يتعلق بكبير من الكبراء يقدر أدبه ويحميه من نوائب

الحدثان ، فلما عاد من السودان وكانت له مكاتبات سابقة للشيخ محمد عبده ، لزم مجلسه ورأى فى الشيخ كرم النفس وعلو الهمة وعطفاً أغناه عن عطف الآباء والأقربين . رأى مجلس الأستاذ الامام حافلا بالعظماء وأعيان مصر وكلهم عرف هذا الشاب الفكه الشاعر الراوية ، ورأى فى إكرامه متاعاً بحسن استماع الأدب المصفى وإرضاء للشيخ عبده ، لأن الشيخ الامام كان مورده محدوداً وبساطه ممدوداً ، فظهر اسم حافظ فى الأوساط الأدبية ، وكان شعره قليلا ظاهر التكلف ، فاستفاد من صحبة الشيخ قوة الديباجة ورصانة الأسلوب ، وكان الشيخ كما قال عنه حافظ : « يعرف مهر الكلام ومقدار كد الأفهام » ، وأغرى الأدباء حافظاً أن يمدح الخديو عباساً علّه يتعطف عليه بوظيفة ، ولكن دون ذلك مشقات ، إذ كان شوقى شاعر الحضرة الخديوية ، وهو فحل قدير لن يبلغ حافظ مبلغه مهما يكن من قوة البيان ، ولأن المنافسة فى هذا الميدان لا يرضاها شوقى ، فصار من دأب حافظ أن يمدح الخديو ويتلطف بمدح شوقى ويحترس من مظنة المنافسة ، وكذلك نجد قصائده فى الجزء الأول من ديوانه على هذا الطراز : تقرب من الخديو ورعب من شوقى وتزلف إليه ، كما قال فى احتفال بعيد الجلوس :

أرى أريكة عباس تحف بها	وقاية الله والإقبـــال والجاه
قل للألى جعلوا للشعر جائزة	فيم الخلاف ؟ ألم يرشدكم الله ؟
لم أخش من أحد فى الشعر يسبقنى	إلا فتى ما له فى السـبق إلاه
ذاك الذى حكمت فينا براعته	وأكرم الله والعباس مثواه

ظل حافظ يركع على عتبات شوقى رجاء أن يميل إليه قلب الخديو بدون جدوى ، ولكن حافظاً بعد سنة ١٩٠١ استفحل شعره وتعلق الشعب به لسهولته مع غموض شعر شوقى فى بعض الأحيان . لقد قوى شعر حافظ وتماسكت قوافيه بعد طبع الجزء الأول ، وأصبح لحافظ جمهور من الأدباء يوازن بين شعره وشعر شوقى ، وصارت الجرائد تعنى بالشاعرين ؛ فاللصيقة بالخديو تدعو لشوقى وغيرها تدعو لحافظ وتشجعه . إذاً فلينبذ حافظ لشوقى على سواء ، وليبارزه فى ميدان الأدب ، وليزاحمه فى مدح الخديو علانية ؛ وكان حافظ فى الجزء الأول مقيداً بتقليد

الأقدمين ، فعلمته معاناة الشعر ومخالطة كبار الأدباء حسن التصرف وإدخال عناصر التجديد فى الأساليب والمعانى ؛ وقد لقى من الشعب إعجاباً أطار من قلبه الخوف من شوقى ، وتفتق ذهنه عن المعانى الخصبة والأساليب الجذابة والصراحة فيما يقصد إليه والسلامة من الالتواء الذى قد يضل بعض الشعراء ؛ نرى ذلك واضحاً فى الأبيات الآتية فى أحد أعياد الخديو :

طف بالأريكة ذات العز والشان … واقض المناسك عن قاص وعن دانى
يا عيد ، ليت الذى أولاك نعمته … بقرب صاحب مصر ، كان أولانى
أزف فيه إلى العباس غانية … عفيفة الخدر من آيات عدنان
ما ضاق أصغره عن مدح سيده … ولا استعان بمدح الراح والبان
هذا هو الملك فليهنأ بملكه … وذا هو الشعر فلتنشده أزمانى

أرأيت أن حافظاً أصاب شوقياً فى الصميم ؟ فعاب شعره وهزأ باستفتاح قصائده فى مدح الأمير بالغزل ووصف الخمر ، عابه بنضوب القريحة وقلة الذوق ، وذكر أنه أحق بلقب شاعر الأمير .

وفى الحق أن الدوى الذى كان يلقاه شعر حافظ كان يغريه بذلك . كان نفس حافظ قصيراً فى أول الأمر ، ثم طال وشغل بالحوادث السياسية وشعر الوطنية عن مدح الخديو إذ وجد نفسه تنفخ فى غير نار وقد سد عليه شوقى الرحاب . ولكن هناك مواقف يفتقد فيها حافظ ويعاب عليه أن يستأثر شوقى بحلبة الشعر ، فلا بد من القول ولا بد من التبريز .

من ذلك حج الخديو فقد أبدع شوقى ماشاء له الإبداع بمختلف القصائد ، فلا بد أن يمثل حافظ بين يدى الأمير ويلق قصيدته البارعة فى حضرته ويغمز شوقياً أيضاً ، ومنها :

متى نلتها يا لابس المجد معلما … أدنيا ودينا ؟ زادك الله أنعما !
فلله ما أبهاك فى مصر حاليا … ولله ما أتقاك فى البيت محرما
أقول وقد شاهدت ركبك مشرقاً … وقد يمم البيت العتيق المحرما :
مشت كعبة الدنيا إلى كعبة الهدى … يفيض جلال الملك والدين منهما

ولو أنني خيرت لاخترت أن أرى لعيسك وحدى حاديا مترنما

وكان من الواجب على حافظ إذ يمدح ولى نعمته والآخذ بيده إلى سلم المجد أن يبدع فى مدح الشيخ محمد عبده على قدر جهده . ثم لما اتسع أفقه الشعرى أجاد ما شاء فى مدح أستاذه ، وجعل شعره صحيفة سيارة تدافع عن الشيخ وترد كيد خصومه الذين اتخذوا الصحف وسيلة لنقده والزراية عليه ؛ ومن أروع شعره فى مدحه قوله قصيدة تفيض إخلاصاً وحسن إبداع وفيها خيال قوى ، حين عودة الإمام من سياحته فى الجزائر :

خشع البحر إذ ركبت جواريـــه خشوع القلوب يوم الحساب
وضياء الإمام يوضح للربـــان سبل النجاة فوق العباب
وسرى البرق للجزائر بالبشـــرى بقرب المطهر الأواب
أدركوا قدر ضيفهم فأقاموا يرقبون الإمام فوق السحاب

ومن قوله فى صد هجمات الجرائد على الشيخ :

سخروا من الفضل الذى أوتيته والله يسخر منهم فى النار
لاتجزعن فلست أول ماجد كذبت عليه صحائف الفجار

وممن لهم الفضل فى تكوين حافظ وتشجيعه ، الشاعر الفحل محمود باشا البارودي . كان البارودى المثل الأعلى لشعراء عصره ، وكان حافظ حريصاً أن يتخذه أستاذاً ويقلده فى شعره . ومن الهين على حافظ أن يمدح الخديو أو الشيخ عبده أو غيرهما أما أن يبيع التمر إلى هجر ، فلا بد من كد القريحة حتى يرضى سيد الشعراء عن شعره ، وإنما يدرك أغوار الشعر من دفع إلى مضايقه ، ويعرف قيمة النقد الصيارفة ، أما غيرهم فيتفاوت حكمهم عليه بتفاوت ثقافتهم وأمزجتهم . لذلك تجد حافظاً حين يمدح البارودى ينسج على منواله ، ومع أنه ليس شاعرا غزلا فقد ابتدأ شعره إليه بالغزل ، وحاول أن يظهر بالبطولة والفروسية كما كان يفعل البارودى ، إذ كان نمطا من هذا النمط . وبأى شىء يمدح حافظ سيد الشعراء وكبيرهم؟ حافظ - كما قلت - بارع فى تفصيل القصيدة على قدر ممدوحه ، وأنه كزهير لايمدح الرجل إلا بما فيه . إنه يمدح البارودى بأحب الأشياء لديه وسلوته بعد أن طحنه الزمان . ذلك أنه شاعر عظيم

سلبتَ بحار الأرض در كنوزها فأمست بحار الشعر للدر موردا
وجئت بأبيات من الشعر فصلت إذا ما تلوها ألفى الناس سجدا

وفى أول هذا القرن نشطت الدعوة السياسية للحكومة العثمانية ، لأنها دولة الخلافة الإسلامية ، وملجأ المصريين فى الشدائد ، فاتجه شطر من الساسة المصرية إلى تركيا ، وكان من الواجب أن تحتفل مصر بالأعياد العثمانية ، وأن ينظم الشعراء فى ذلك ؛ وشعر حافظ فى هذا الباب ضخم الأسلوب لكنه ضعيف الروح .
وهناك ناحية بارزة فى حافظ بالرغم من كل شىء ، هى إعجابه بشوقى إعجابا ملك عليه حواسه ، فهو معترف له أولا وآخرا بالسبق والغلب ، وله فى مدحه قصيدة أشبه بالمعلقات أنشدها فى مهرجان شوقى وتعد من أبرع شعره ، ومنها :

أمير القوافى ، قد أتيت مبايعاً وهذى وفود الشرق قد بايعت معى

ولا أجد فى تقدير حافظ أبلغ من رثاء شوقى إياه :

وغدا سيذكرك الزمان ولم يزل فى الناس إنصاف وحسن جزاء
خلفت فى الدنيا بيانا خالدا وتركت أجيالا من الأبناء

وكأن المهرجان الذى أقيم لحافظ فى الأسبوع الثانى من شهر مارس سنة ١٩٣٧ فى (دار الأبرا) الملكية صدى لدعوة شوقى

حسنين حسن مخلوف